(5)

« .. والصراع الحتمى والطبيعى
بين الطبقات لا يمكن تجاهله أو إنكاره ،
وإنما ينبغى أن يكون حله سليما فى إطار الوحدة
الوطنية وعن طريق تذويب الفوارق
بين الطبقات ...»

ما هى وجهة نظر الناصرية فى حتمية الصراع الطبقى ؟

لقد جعل الصراع الطبقى الذى مر على المجتمعات البشرية كثير من المفكرين والفلاسفة يحللون هذه الظاهرة ويعتبرون أن وجود الطبقات يؤدى حتما إلى قيام الصراع فيما بينها فى سبيل السيطرة والقوة . غير أن بعضا منهم حلل هذه الظاهرة بعوامل غير اقتصادية - فمنهم من أرجعها إلى عوامل دينية أو نفسية أو إلى مسئوليات المعيشة المتباينة داخل المجتمع الواحد أو بالنسبة لظروف اجتماعية معينة.

إلا أنه مما لا شك فيه أن العامل الحاسم فى ذلك هو العامل الاقتصادى ، أى العلاقة القائمة بين الطبقات ووسائل الإنتاج فى المجتمع .

و نحن إذا نظرنا إلى المجتمع الاسلامى فى بدء ظهوره نجد أن هذه الظاهرة وهذا الصراع كان قائما بين من حملوا رسالة الإسلام على حقيقتها كثورة اجتماعية تهدف إلى تحقيق العدالة الاجتماعية وعدالة التوزيع لناتج وسائل الإنتاج التى كانت قائمة فى ذلك الوقت ، وهى الأرض ، وبين من انضموا إلى الإسلام لا حبا وإيمانا به بل لمحاولة احتوائه وتوجيهه إلى نظام اقتصادى واجتماعى معين يحقق لهم السيطرة الإقطاعية ثم السيطرة السياسية بعد ذلك.

وكانت وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام إيذانا ببدء هذا الصراع وقيام الثورة المضادة للإسلام والتى كانت أولى بوادرها ارتداد البعض عن الإسلام واتخاذهم مواقف معينة ضد الصحابة وأهل البيت. ألا أن وقوف أبى بكر الصديق (رضى الله عنه) وتصديه لهذه الثورة المضادة وقضائه عليها فى مهدها بعد سلسلة من المعارك المعروفة (بحرب الردة) أمكنه أن يحفظ الإسلام ويصونه ويعيد الوحدة إلى المسلمين. إلا أن أعداء الإسلام وإن لم يستطيعوا أن يطعنوا الإسلام فى جوهره وعقيدته فقد اخذوا يعملون لطعنه كثورة اجتماعية تهدف إلى تحقيق العدالة والحرية والمساواة بين الناس. فاتخذوا سبيل العنف فى ذلك وقاموا بسلسلة من الاغتيالات أودت بحياة عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب (رضى الله عنهم) وبموت الأخير انحرف المسلمون عن ثورتهم الاجتماعية فقامت الدولة الأموية نسبة إلى معاوية بن أبى سفيان والذى كان أبوه أبى سفيان من أعدى أعداء الإسلام والرسول (عليه الصلاة والسلام).

وبقيام الدولة الأموية عاد الإقطاع مرة أخرى يبسط نفوذه على المجتمع الاسلامى وقامت الخلافة بالوراثة التى كانت بعيدة عن روح الإسلام وتعاليمه.

لقد قام الإسلام على مبادئ اجتماعية واقتصادية معينة فهو يضع حدا لتملك رأس المال ويمنع سيطرته على الحكم كما جاء فى سورة الشورى "ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى

الأرض ، ولكنه ينزل بقدر ما يشاء ، إنه بعباده خبير بصير" .

وكما جاء فى سورة الإسراء "وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا".

كما حمل القرآن على اكتناز الأموال والمكتنزين لها مما يؤدى إلى حبسها عن النشاط الاقتصادى كما جاء فى سورة التوبة "الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم" . وما جاء فى سورة البقرة "وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون" .... هذا ولم يعترف الإسلام بوجود الطبقات الاجتماعية ولكنه نص على تفاوت الدرجات بين الناس تبعا لما يؤدونه من أعمال كما جاء فى سورة الأحقاف "ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون" كما جعل الجزاء مقترنا بالعمل وهذا ما يبدو فى قوله تعالى فى سورة الصافات "وما تجزون إلا ما كنتم تعملون" .

إن الإسلام لا يمكن قطعا أن يبيح نظام الطبقات لأن هذا النظام يتنافى مع ما أعلنه الإسلام وخاطب به الناس والشعوب جميعا من مبادئ المساواة والحرية والمشاركة فى التمتع بالحياة ومنع التمييز والتفرقة والاستغلال بين الناس .

وقد اعترف الإسلام ضمنا بوجود الصراع الطبقى على أساس اقتصادى وعلى أساس علاقة الإنسان بوسائل الإنتاج وما

يؤديه هذا الصراع من تدمير للمجتمعات الإنسانية كما سبق أن بينا فى آيات القرآن البينات.

ومن هذا يتضح لنا أن نظرية الصراع الطبقى لم تكن جديدة علينا أو دخيلة على فكرنا بل هى أصيلة فى هذا الفكر ونابعة منه، ولعل فى استعادة كثير من الأحاديث النبوية الشريفة وما قاله السلف الصالح من علماء المسلمين فى هذا الشأن ما يوضح لنا الكثير مما قيل فى هذا الموضوع.

وعلى هذا فليست هى "إرادة اللّه" أو طبيعة الإنسان التى تجعل من البعض طبقات مُستغلة تعانى البؤس والفقر والحرمان وآخرين طبقات مستغلة تتمتع بثمرات الحياة على حساب الآخرين كما يحاول بعض المفكرين والكتاب إبراز ذلك.

وقد حاول البعض أن يجعل من الفكرة القومية الأساس الذى يقوم عليه الاستقرار الاجتماعى فى المجتمعات البشرية دون وضع أى اعتبار لمسألة الصراع الطبقى داخل هذه المجتمعات، واعطائها أهمية ثانوية بالنسبة للمسألة الأولى. إن هذه النظرة خاطئة من أساسها لأنها تتجاهل الواقع الموضوعى الذى تعيشه هذه المجتمعات كما أنها تتجاهل عاملا هاما من عوامل تطور المجتمعات الإنسانية وهو العامل الاقتصادى أو المادى، علاوة على تجاهل عامل الفكر الانسانى. وخطأ هذه النظرة يرجع

أولا إلى أن الفكرة القومية - كما هى الحال بالنسبة لمسألة العلاقات الطبقية لم تكن نتيجة ظروف داخلية بل نتيجة تطورات تاريخية بعيدة فى المجتمعات البشرية.

فظهور المجتمعات الإنسانية يرتبط ارتباطا وثيقا بطبيعة النظام الاجتماعى والتغييرات التى تحدث فيه. فالمجتمعات البدائية الأولى كانت تقوم على أساس العائلة أو القبيلة والتى كان يرتبط أفرادها فيما بينهم بصلة عنصرية أو بصلة الدم. وبانهيار هذا النظام انهارت أيضا النظم القبلية وضعفت بالتالى رابطة الدم التى كانت تشكل مثل هذه المجتمعات.

وقد أدى اندماج هذه المجتمعات البدائية فى بعضها البعض إلى قيام الشعوب القومية وقد قامت القوميات على أسس وأركان تكلم عنها كثير من المفكرين مثل (اللغة - الدين - البيئة الجغرافية - الثقافة - المصالح المشتركة - الآمال المشتركة .. الخ) والتى هى تنبع فى الواقع من أساس تاريخى واجتماعى . وبالرغم من ذلك فقد ظلت وحدة المجتمعات القومية غير مستقرة . ففى المجتمع العبودى والمجتمع الاقطاعى استمر الصراع قائما لافتقار هذه المجتمعات إلى نوع من وحدة الحياة الاقتصادية اللازمة لضمان الاستقرار فيها . ولم تتبلور هذه المجتمعات إلى شعوب إلا فى ظل النظام الرأسمالى الذى استطاع أن يقضى على النظام الإقطاعى ويقيم فيها سوقا قومية واحدة . ولتفادى

الصراع الطبقى فى المجتمعات البورجوازية الجديدة ابتكر مفكرو هذا النظام فى وسيلة جديدة للمحافظة على وحدته فأضافوا ركنا جديدا من أركان القومية وهو الجنس (العرق) وذلك لإلهاب مشاعر الجماهير ومحاولة استخدامها فى المغامرات والحروب الاستعمارية التى صاحبت قيام هذا النظام فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وفى القرن العشرين .. ففى القرن الثامن عشر كانت القومية الفرنسية التى انبثقت عن الثورة البورجوازية الفرنسية تلعب الدور الأكبر فى هذه الحروب .

وفى القرن التاسع عشر لعبت القومية الإنجليزية هذا الدور تحت شعار تحمل (الرجل الأبيض) مسئولية بناء الحضارة الإنسانية . وقد حاولت القومية الألمانية فى القرن العشرين خصوصا فى الحرب العالمية الثانية القيام بهذا الدور باسم سيطرة الجنس الجرمانى على بقية الأجناس كما وضح فلاسفة ومفكروا هذه النظرية أمثال (نيتشة) و (روزنبرج) من فلسفات عن مجتمع السادة والعبيد والإنسان الأعلى وغير ذلك من ترهات.

إن مثل هذه النظريات التى قامت على أساس أن بعض الأجناس أو الشعوب تتميز عن غيرها وأن الشعوب الملونة فى حاجة دائمة إلى الجنس الأبيض لكى يقودها ويوجهها فى الحياة غير صحيحة من الناحية العلمية ومن الناحية التاريخية التى أثبتت أن كل الشعوب فى العالم قادرة على إقامة الحضارات

وخلق القيم الثقافية والإنسانية. وان ما تقدمه هذه الشعوب إلى الحضارة الإنسانية من ثقافة وقيم لا يرجع إلى لون البشرة أو شكل الجمجمة بل يرجع إلى تطور هذه الشعوب تاريخيا.

من كل هذا يتضح لنا أن المجتمع القومى - كما يفهمه فلاسفة البورجوازية - لا يمكنه بأى حال من الأحوال أن يقضى على الصراع الطبقى فى داخل الشعب الواحد - بل بالعكس انه يفتت هذا الشعب إلى معسكرات متقاتلة يتحين كل منها الفرصة للانقضاض على الآخر ما لم يكن هذا الصراع أو العداء موضع اعتبار وفهم عند قيام الحركة القومية.

ومن ناحية أخرى يوجد تضامن بين الطبقات المستغلة تتعدى حدود الوطن الواحد. فالاستعمار العالمى الذى يشكل تضامن بين بعض القوى الرأسمالية الكبيرة - رغما عن اختلاف قومياتها - يسعى دائما إلى استغلال الشعوب وسلب ثرواتها فى أحسن الأحوال فانه يفرض عليها التخلف متعاونا فى ذلك مع الطبقات الرأسمالية والإقطاعية فى هذه الشعوب.

لذلك كانت الحركة القومية العربية ذات المحتوى الاشتراكى واعية لهذه المخاطر فكانت أهم مبادئها التى انبثقت عن ثورة 23 يوليو ضرورة القضاء على الاستعمار وأعوانه من الخونة والقضاء على الإقطاع والقضاء على سيطرة رأس المال على الحكم وإقامة عدالة اجتماعية وإقامة حياة

ديموقراطية سليمة . وقد استطاعت الحركة القومية العربية تحت الظروف القاسية التى تعيشها الأمة العربية أن تحقق كثيرا من الانتصارات رغما عما يتساءل به البعض عما قدمته للثورات العربية.

و يحاول البعض أن يُسخر الحركة القومية العربية لخدمة الاحتكارات البترولية العالمية بإقامة إمبراطورية من الدول المنتجة للبترول. كما يحاول البعض الآخر أن يستخدمها مطية الاستعمار الجديد بعد أن فشل الاستعمار القديم فى المحافظة على قواعده وامتيازاته وعملائه.

إن الحركة القومية العربية بمفهومها التقدمى ضمانة لحق الشعوب فى تقرير مصيرها وعامل على استقرار السلام على أساس من العدالة والحرية والمساواة ، ولم تعمل على استعباد الشعوب الأخرى واستغلالها أو تتخذ العامل العنصرى أو عامل الجنس ركنا من أركان مقوماتها .

وقد قال جمال عبد الناصر فى كتاب فلسفة الثورة "وإذن فنحن أقوياء ليس فى علو صوتنا حين نولول ولا حين نصرخ ولا حين نستغيث ، إنما أقوياء حين نهدأ ، أو حين نحسب بالأرقام مدى قدرتنا على العمل ، وفهمنا الحقيقى لقوة الرابطة بيننا ، هذه الرابطة التى تجعل من أرضنا منطقة واحدة لا يمكن عزل جزء منها عن كلها ، ولا يمكن حماية مكان بوصفه جزيرة لا تربطها بغيرها رابطة ...."

وإنقسام المجتمع إلى طبقات موجودة منذ الأزل. فمن المعروف أن تقسيم المجتمع إلى طبقات لم يكن موجودا فى المجتمعات البدائية كما أنه غير موجود فى المجتمعات الاشتراكية، فأساس قيام الطبقات يرجع إلى وجود الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج التى تؤدى بالتالى إلى استغلال الفرد للفرد أو استغلال مجموعة من الأفراد لمجموعة أخرى لصالحها الخاص. وقد كان لا يمكن تفادى تقسيم المجتمع إلى طبقات فى مرحلة معينة من مراحل تطور المجتمعات البشرية- بل كان ذلك ضروريا لازما - حيث كانت القوى المنتجة ضعيفة وتعتمد على وسائل إنتاج يدوية ولم تكن تستطيع تحقيق فائض يذكر من هذا الإنتاج، وحيث كان جزء من المجتمع يقوم بإدارة هذه القوى المنتجة أو يعمل بالتجارة أو الشئون العامة الأخرى، وفى مرحلة أخرى اهتم هذا الجزء بتطوير العلوم والفنون والقوانين .. الخ. ولكن منذ أن بدأت الثورة الصناعية تشق طريقها وأصبح الإنتاج يعتمد على الآلة وعلى أعداد كبيرة من العمال واضطرار العمال الحرفيين إلى ترك أعمالهم والانضمام إلى جيوش العمال العاملة فى المصانع، ووُجه المجتمع بمشكلة إيجاد التوازن بين طبيعة الإنتاج الجماعية الجديدة والملكية الفردية لرأس المال. وازداد التناقض داخل المجتمع حيث كان هدف الرأسماليون الحصول على أكثر فائض أو ربح من إنتاج مصانعهم على حساب الآلاف المؤلفة من العمال التى تعمل بالمصنع. ومن هنا كان

مـن الضـرورى لإزالة هـذا التناقـض أن تصبح ملكيـة رأس المال جماعيـة لتتوازن مع طبيعة الإنتـاج الجماعية .. وبذلك تختفى الطبقات المسـتغلة وتذوب الفوارق بين الطبقات وتزول العراقيل التى تعوق تطور المجتمع.

وتنقسـم المجتمعات غير الاشـتراكية عـادة إلى طبقتين أساسـيتين وهما فـى المجتمـع العبـودى طبقة السـادة وطبقة العبيـد وفـى المجتمـع الاقطاعـى طبقـة الإقطاعيـين وطبقـة الفلاحـين وفى المجتمـع البورجوازى طبقـة الرأسماليين وطبقة العمـال. أى أن الوضـع الطبقـى فى هـذه المجتمعـات عبارة عن طبقة تمتلك وسـائل الإنتاج الرئيسـية وتمارس فى الوقت نفسه السـلطة السياسـية بينما الطبقة الأخرى تتكون من الجماهير المسـتغلة. والعلاقة بين هاتين مثلا تظـل دائما عدائية وقائمة على الصـراع فيما بينهما . ففى المجتمـع البورجوازى مثلا نجد أن طبقة الرأسماليين تسـعى إلى إجبار طبقة العمال على إنتاج أكبر كميـة من الإنتاج بأقـل أجور ممكنة بينمـا أن طبقة العمال تسـعى دائما عكس هذا الاتجاه ومن هنا ينشـأ الصدام المستمر بينهما الذى يهز كيان المجتمع ويمنع الاستقرار فيه .

لذلـك كان الصـراع والتناقـض الطبقـى أمـر حتمـى فـى المجتمعات البورجوازية لابد من القضاء عليه ليسـتطيع المجتمع أن يسـير فى طريق البناء الاشـتراكى . إن اشـتراكيتنا تؤمن

بذلك. وقد استطاعت أن تحل هذا التناقض بالوسائل السلمية وليس بالصراع الدموى. وكما جاء فى الميثاق «الصراع الحتمى والطبيعى بين الطبقات لا يمكن تجاهله أو انكاره، وإنما ينبغى أن يكون حله سليما فى إطار الوحدة الوطنية وعن طريق تذويب الفوارق بين الطبقات».

إن زوال الطبقات المستغلة لا يمنع إطلاقا من وجود عناصر جديدة لها تطلعات طبقية تسعى دائما لتحل محل الطبقات القديمة بحكم اتصالها السابق بهذه الطبقات وتأثرها فكريا بها. وهى عبارة عن قشور طبقية تريد أن تتراكم لتشكل طبقة جديدة لتعاود الاستقلال مرة أخرى.

وهى إذا كانت تحالفت فى الماضى مع طبقات العمال والفلاحين فإنها يجب أن تتمسك بتحالفها هذا وإلا انفصلت عن قاعدتها الشعبية الوطيدة.

وهى فى محاولتها التخلص من هذا التحالف تنادى بأن ثورتنا ترفض مبدأ الصراع الطبقى وتحل التعاون بين الطبقات محل هذا الصراع. وقد جاء فى الميثاق «إن الرجعية ما زالت تملك من المؤثرات المادية والفكرية ما قد يغريها بالتصدى للتيار الثورى الجارف خصوصا فى اعتمادها على الفول الرجعية فى العالم العربى المسنودة من جانب قوى الاستعمار. إن تطورنا الثورى هو الذى يؤكد ضرورة تمسكنا بالمبادئ

والقيم التى نادى بها الميثاق. إن الميثاق يقول «إن التقدم هو غاية الثورة. والتخلف المادى والاجتماعى هو المفجر الحقيقى لإرادة التغيير والانتقال بكل قوة وتصميم مما كان قائما بالفعل إلى ما ينبغى أن يقوم بالأمل».